الفصل الرابع
الحكمة من ذكر الحشرات
فى القرآن والسنة

obeikandl.com

obeikandl.com

الحكمة من ذكر الحشرات
فى القرآن والسنة

لا يخلو ذكر الحشرات فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من حكم جليلة سامية، ونود أن نتعرف على معنى الحكمة قبل بيان أنواعها، ليكون ذلك أكثر إعانة على إدراكها والعمل بمقتضاها.

معنى الحكمة:

للحكمة معان كثيرة، وللعلماء فيها كلام مستفيض، نجتزئ منه ما يلى:

١ ـ ذهب ابن عباس إلى أن الحكمة المقصودة فى قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة: ٢٦٩) تعنى القرآنَ والفهمَ فيه.

٢ ـ قال مجاهد: هى القرآن والعلم والفقه.

٣ ـ قال أبو مالك: السنة.

٤ ـ وقيل: الحكمة هى العلم النافع المؤدى إلى العمل الصالح[١].

وهذا المعنى الأخير على إجماله يتفق مع ما نهدف إليه، ذلك لأن الحكمة ضالة المؤمن، فإذا وجدها فهو أولى الناس بها، ونحن حينما نُعْمِلُ الفكر، ونُجِيلُ النظر فى هذه المخلوقات الدقيقة الرقيقة، ونتعرف على الأغراض التى ذكرت فى القرآن من أجلها، فإننا بهذا إنما نحاول الوصول إلى العلم النافع بخصوصها؛ حيث يدفعنا إلى العمل الصالح الذى يقربنا إلى الله – تعالى –

الحكمة من ذكر الحشرات فى القرآن والسنة:

أولا: الحشرات آية من آيات الله فى الخلق والإبداع:

فالحشرات دواب خلقها الله – تعالى – لتقف مع غيرها من الدواب فى صف الإعجاز وإعطاء الأدلة على تفرده بالخلق والإيجاد، قال – تعالى –: ﴿وَفِى خَلْقِكُمْ

---

(١) تفسير ابن كثير، ج ١، ص ٣٢٢، وصفوة التفاسير، للصابونى، ج ١، ص ١٧٠.

﴿ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (الجاثية: ٤). فللحشرات تاريخها الضارب فى القدم، وانتشارها العالمى الهائل، بحيث لا تكاد تجد بيئة من البيئات تخلو من هذه المخلوقات، ولها أنواعها العديدة، هذا فضلا عن تنوع أنماط حياتها وسلوكها، كما أن لها طرزها اللونية التى تبعث على معرفة الله وخشيته، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ (فاطر: ٢٧، ٢٨).

فهذا النص يوقفنا على سنة من سنن الله – تعالى – فى خلقه، ألا وهى سنة التمايز والتغير بين الأفراد على أساس الاختلافات اللونية بينها، يستوى فى ذلك الجماد والحيوان والنبات والإنسان، والحشرات لها باع طويل فى هذا المضمار، ففى تعدد ألوان أفرادها مع دقتها ورقتها ما ينطق بعظمة الله، ثم إن الآيات ترتب خشية الله على العلم بهذه الأشياء وإدراك حكمتها، وأحق الناس بخشية الله هم العلماء الذين هداهم الله إلى معرفة أسرار هذه الموجودات، وتجعل كل ذى لب يهتف فى تلقائية:

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٤).

ثانيا: الحشرات جند من جند الله:

حينما نطالع النصوص الواردة فى القرآن عن الحشرات بهذا الخصوص، فإننا نجد حكمة أخرى لها بالحكمة السابقة وثيق الصلة، فالله جعل هذه المخلوقات جندًا من جنده ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر: ٣١). ينصر بها رسله وأولياءه، ويذل بها ويرغم أنوف أعدائه، وسنورد أمثلة لذلك فيما يلى:

أ ـ الأرضة (دابة الأرض) تُنْهِى حصار الرسول والمسلمين فى شعب أبى طالب بمكة:

ورد فى الصحيحين وغيرهما، أن قريشًا لما بلغهم إكرام النجاشى لجعفر بن أبى طالب وأصحابه حينما هاجروا إلى الحبشة كبُر ذلك عليهم، وغضبوا على رسول

الله ﷺ وأصحابه، واشتطُّوا فى معاملتهم، وكتبوا صحيفة ظالمة جائرة تنص بنودها على مقاطعة بنى هاشم مقاطعة تامة، فلا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم، وعلقوا هذه الصحيفة فى جوف الكعبة إشارة إلى احترام بنودها والمبالغة فى تطبيقها، وكان الذى كتب الصحيفة رجلاً يقال له: "بغيض بن عامر" فشُلت يدهُ، وحصروا بنى هاشم فى شعب أبى طالب ليلة المحرم سنة سبع من البعثة، وانحاز إليهم بنو عبد المطلب، وقطعت قريش عنهم الميرة والمدد، فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغوا الجهد، وأقاموا على ذلك ثلاث سنين، ثم أطْلع الله رسوله ﷺ على أمر الصحيفة، وأن الأرضة قد أكلت ما كان فيها من ظلم وجور، وبقى ما كان فيها من ذكر الله – تعالى – فأخبرهم أبو طالب بذلك، فارتقوا إلى الصحيفة فوجدوها كما قال رسول الله ففكوا عنهم الحصار وأخرجوهم من الشعب[1].

ب ـ الأرضة (دابة الأرض) تبطل ادعاءَ الجن علمَ الغيب:

ولا يقتصر دور الحشرات فى الإنذار والتخويف على الإنس فقط بل يتعداهم إلى الجن، وهم من عالم ما وراء الطبيعة، فقد امتن الله على سليمان – عليه السلام – بتسخير الجن له، يعملون له الأعمال الإنشائية الشاقة، سواء أكانت للأغراض الحربية أم المدنية، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٢، ١٣) فكانوا يدَّعون علم الغيب، فأراد الله أن يبطل دعواهم، ويرد كيدهم إلى نحورهم، فلما استعملهم سليمان فى بناء بيت المقدس وحان أجله وأعلمه الله به، سأل ربه أن يعمى عنهم موته حتى يفرغوا من البناء ولتبطل دعواهم علم الغيب، فقام يصلى متكئا على عصاه فى مصلاه، فقبضت روحه وهو متكئ عليها فبقى كذلك، وهم فيما أمروا به من الأعمال حتى أكلت الأرضة عصاه فخر

---

[1] حياة الحيوان الكبرى للدميرى، ج ١، ص ٥٠، ط الشعب.

على الأرض، وكانت الشياطين تجتمع حول محرابه كلما صلى، وصدق الله إذ يقول: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ (سبأ: ١٤).

وهكذا ظل الجن مسخرين يعملون فى بناء بيت المقدس معتقدين أن سليمان – عليه السلام – مازال على قيد الحياة، حتى ظهرت لهم الحقيقة على يد دويبة صغيرة هى الأرضة التى تسللت إلى المنسأة (العصا) التى يتكىء عليها نبى الله سليمان فأكلت منها حتى ضعفت عن حمل جسده فخر على الأرض، عندئذ أدرك الجن زيفهم وزيغهم، وأنهم لا يعلمون من الغيب شيئا، إنما علم الغيب لله – وحده – مصداقا لقوله الكريم: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ (الجن: ٢٦، ٢٧).

ج ـ الجراد والقُمَّل لتأديب قوم فرعون:

حينما تطاول قوم فرعون على نبى الله موسى – عليه السلام – وأنهم لم ولن يستجيبوا لدعوته، لأنها فى نظرهم سحر ووهم – على حد ما سجله القرآن عليهم فى هذا الشأن فى قوله – تعالى -: ﴿ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣٢).

فكان أن شدد الله عليهم، وابتلاهم بالجدب والقحط، وكان للحشرات دور هام كوسيلة من وسائل ردهم، وبخاصة أن ملكهم فرعون قد تطاول على مقام الألوهية والربوبية: ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (النازعات: ٢٤) وقال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى ۖ فَأَوْقِدْ لِى يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ (القصص: ٣٨).

وشايعه قومه فى هذا السَّفَه حيث استخف بعقولهم فأطاعوه على نحو ما سجله القرآن عليهم فى قول الله – تعالى -: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ (الزخرف: ٥٤)، ولم ينته به السخف عند هذا الحد، بل أراد أن يحمل نبى الله موسى – عليه السلام – على عبادته كرها وتهديدًا بالسجن على غرار ما

يفعل المجرمون، حيث قال: ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ (الشعراء: ٢٩).

فسلط الله عليهم وسائل العقاب على نحو ما ورد فى قوله ـ تعالى ـ:

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣٣).

فأكل الجراد زروعهم وثمارهم، كما سلط الله عليهم القُمَّل، قيل إنه السوس (حشرات تصيب المواد المخزونة) فأجهز على مدخراتهم من المواد الغذائية، فإذا كان الجراد قد أكل ما كان من الزروع قائما فإن السوس قد أتى على ما كان منها مدخرًا، وقيل: إنه القمل المشهور المعروف، وهو يتطفل خارجيا على جسم الإنسان، فمنه قمل الرأس، وقمل العانة، وقمل الجسم، فكان يدخل بين ثيابهم وجلودهم فيمتص دماءهم، وسواء أريد به السوس أو القَمْل الحقيقى فتلك أنواع من الحشرات سلطها الله عليهم لعلهم يتوبون ويرجعون، يقول الله ـ تعالى ـ:

﴿ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٨).

ولما كان الجراد غير متوطن بمصر ساغ التعبير بإرساله ضمن هذه المرسلات، وتلك سنة من سنن الله ـ تعالى ـ حينما يوجه شيئا من البلاء لتعذيب العاصين، والنصوص فى هذا الشأن متضافرة ومتوافرة، يقول الله ـ تعالى ـ فى شأن أصحاب الفيل: ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ (الفيل: ٣) يقول الله ـ تعالى ـ فى شأن عاد قوم هود: ﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴾ (القمر: ٢٧)، كما أرسل عليهم الصيحة لهلاكهم ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ (القمر: ٣١). ويقول فى شأن قوم لوط: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴾ (القمر: ٣٤).

كما يعبر القرآن أحيانا عن إرسال هذه الوسائل العقابية بالقذف بها فى صورة موحية بالشدة والقسوة، يقول ـ تعالى ـ: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٨).

د ـ البعوض يدمغ النمرود:

ذكر الواحدى فى تفسيره الوسيط أن النمرود بن كنعان هو أول من وضع التاج على رأسه، وتجبر فى الأرض وادعى الربوبية[1].

كما ذكر الحافظ ابن كثير فى تفسيره أن بعوضة دخلت فى منخرى النمرود حتى أهلكه الله بها[2]، وإن كان فى النص مبالغة حيث ذكر أن البعوضة بقيت فى منخره أربعمائة سنة، كما ذكر غيره تلك الواقعة بدون تحديد مدة لمكث البعوضة فى رأسه.

وعلى أى حال فإن هذه البعوضة تمثل قذيفة أحيائية حية قذف الله بها رأس ذلكم الطاغية فأصابت دماغه (مخه) صاحبَ الفكر المنحرف المنجرف، الذى قاد صاحبه إلى النكران والكفران بدلا من أن يقوده إلى الشكران والإيمان، وستظل ترسانة الخلاق العليم مليئة بهذه القذائف وغيرِها، أشكالا وألوانا لردع الطامحين الجامحين وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ (هود: ٨٣).

هـ ـ الذباب يذل الله به الجبابرة:

ورد فى روضة الأخبار أن المأمون خطب ذات مرة، فوقع ذباب على عينه فطرده، فعاد الذباب مرارًا حتى قطع عليه الخطبة، فلما صلى أحضر أبا هذيل ـ شيخ البصريين فى الاعتزال ـ فقال له: لم خلق الله الذباب؟ قال: ليذلَّ به الجبابرة. قال: صدقت، وأجازه بمال.

و ـ الدَّبر يحمى جثمان عاصم بن ثابت الأنصارى:

أورد ابن هشام فى سيرة النبى ﷺ أن عاصم بن ثابت الأنصارى ـ الصحابى المجاهد ـ قتل يوم الرجيع، فأرادت هُذَيْل أخذ رأسه ليبيعوه من "سلافة بنت سعد" أى ليبيعوه لها، وكانت قد نذرت حين أصاب عاصمٌ ابنيها يوم أحد لئن قدرت عليه لتشربن فى قحف رأسه الخمر، فمنعه الدَّبر (الزنابير أو النحل)، فلما حال بينهم وبينه قالوا: دعوه (أى الدبر) حتى يمسى فتذهب عنه فنأخذه، فبعث الله الوادى

---

(١) التفسير الوسيط للواحدى، ج ١، ص ٣٦٨ ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.
(٢) ابن كثير، ج ١ ص ٣١٣.

(أى المطر الذى يسيل فى الوادى بغزارة) فاحتمل عاصمًا فذهب به، وقد كان عاصم قد أعطى الله عهدًا أن لا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدًا، تنَجُّسًا (أى اتقاءً للنجاسة)، فالمشركون نجس لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ (التوبة: ٢٨).

فكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول حين بلغه ذلك:

"يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركا أبدًا فى حياته، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه فى حياته".

ولهذا أطلق على عاصم ـ رضى الله عنه ـ: حَمِىُّ الدَّبر.

وتلك آية من آيات الله فى حفظ عباده وأوليائه، كان للحشرات فيها دور الذود عن المؤمنين يوم أن صعدت الروح إلى بارئها، إشارة إلى ضعف كيد الكافرين.

ى – يسلط الله نوعا من الحشرات على يأجوج ومأجوج فيقضى عليهم، ففى الحديث الذى يرويه أبو سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: **"فبينما هم كذلك إذ بعث الله دواب كنغف الجراد فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد يركب بعضها بعضا، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حسًّا"** (ابن ماجه، كتاب الفتن، باب ٣٣ حديث رقم ٤٠٧٩).

ثالثا: الحشرات مادة لضرب الأمثال:

ونود أن نعرف المقصود بالمثل حتى يكون ذلك أكثر عونا لنا على فهم المراد منه عند الاستشهاد بالنصوص فى مواطنها.

معنى المثل:

المثل: كلمة مأخوذة فى الأصل من كلمة (المثال) بمعنى النظير، وهو قول سائر على الألسنة، يشَبَّه به أمرٌ بأمْرٍ سابق، يسمَّى الأمرُ السابق بالمورِد، ويسمى الأمرُ الحاضرُ بالمضْرب، والمثل قول موجز، يصيب المعنى، فيه حسن التشبيه وجودة الكناية، فهو فى غاية البلاغة، والمثل يروى كما ورد من غير تغيير فى لفظه، ولا يضرب إلا بما فيه غرابة أو شأن عجيب، ومنه قول النبى ﷺ: **"كل الصيد فى جوف**

الفرا" ومنه قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ (الحج: ٧٣) وغير هذا فى القرآن والسنة كثير.

وعليه، فلما كانت الحشرات مخلوقات ضعيفة ورهيفة، لا تقاس قدرتها بقدرة البشر، فضلا عن مدعى الألوهية منهم، فقد ضرب الله بها الأمثال فى كثير من المواطن فى كتابه العزيز للدلالة على بالغ حكمته، وعظيم قدرته، وفى هذا المعنى يقول الإمام أبو منصور: الأعجوبة فى الدلالة على وحدانية الله ـ تعالى ـ فى الخلق الصغير الجثة والجسم أكبر منها فى الكبار العظام... فالبعوضة أعطيت على قدر حجمها الحقير كل آلة وعضو أعْطِيَهُ الفيل الكبير القوى[1]. أى أن بجسمها من الأجهزة ما تصلح به حياتها كما أن بجسد الفيل ما يصلح حياته.

وضرب المثال بالحشرات فى القرآن والسنة متنوع تبعا لتنوع الأغراض والمعانى التى يراد إبرازها، ونجتزىء منها بذكر أمثلة للتوضيح فيما يلى:

أ ـ يضرب الله المثل بالحشرات لأنها خلق من خلقه:

روى الحسن وغيره أن الكفار أنكروا ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ﴾ (الحج: ٧٣)، وفى قوله: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ (العنكبوت: ٤١).

أو أنهم قالوا: الله أجل وأعلى من أن يضرب الأمثال لما نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة: ١٧).

وقوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٩).

فأنزل الله قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ

---

[1] تفسير روح البيان لإسماعيل حقى البرسوى، ج ١، ص ٦٦، ط: إحياء التراث العربى ـ بيروت.

﴿أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٦).

وفيها يخبر الله بأنه لا يستحيى ولا يستنكف ولا يمتنع أن يضرب مثلا أى مثل كان، بأى شىء كان، صغيرًا كالبعوضة أو ما دونها فى الصغر، أو كبيرًا كالذباب والعنكبوت ونحوهما، فكما أنه خلق هذه الأشياء ولم يستنكف من خلقها، فهى على صغرها فيها من دلائل القدرة وبديع الصنعة ما تحار فيه العقول، ويشيد بحكمة الخالق، فإنه لا يستنكف أن يضرب المثل بأى شىء منها، فهو سبحانه وتعالى ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣).

ب ـ فى ضرب المثل بالحشرات إشارة إلى عجز الآلهة المزعومة:

إن الآلهة التى يتخذها الكافرون من دون الله حجرًا كانت أو شجرًا أو حيوانًا أو إنسانا إنما هى أعجز وأضعف من الضعف فى حد ذاته، فمن صفة الإله القدرة، وهؤلاء لا قدرة لهم، حيث لا يستطيعون خلق شىء من هذه الحشرات كالذباب ونحوه، وناهيك عن التحدث عن قدرتهم على الخلق، فعجزهم بَيِّنٌ ظاهر وواضح وضوح الشمس فى رابعة النهار، فهم من العجز بحيث لا يستطيعون إعادة ما يسلبه الذباب منهم أو من آلهتهم إذا ما حط على طعام أحدهم أو شرابه أو على ما يقرب لإلهه، ووجه التحدى والعجز فى هذا أن القدر الذى تأخذه الذبابة بفمها أو بأرجلها على سبيل السلب شىء من الدقة والصغر بحيث لا يمكن تقديره فضلا عن إعادته وإرجاعه، وأن الإنسان أضعف فى قوته من هذا الجزء المسلوب ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣).

ج ـ تقريب لمعنى البعث فى الأذهان:

لقد ضرب الله المثل بالحشرات ليقرب إلى أذهان الناس معنى البعث يوم القيامة، وما ينتابهم فيه من هول وفزع، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ (القمر: ٧).

فهذه الآية تقرر حقيقة يعرفها أهل الجزيرة العربية التى تتعرض لموجات من أسراب الجراد الرحال، الذى إذا ما حط بأرض وألقى بها عصا تسياره قضى على ما

بها من نبات، وتضع إناثه بيضها فى تلك التربة بنظام محكم، ثم لا تلبث الآباء أن ترحل وقد أتت على الأخضر واليابس، فإذا ماتمت مدة حضانة هذا البيض وواتته الظروف، فإن أفواج تلك الصغار تشق الأرض شقا، وتنتشر، فيظن الناس أن الجراد يتولد من الأرض، وكذلك حال الناس يوم البعث، يخرجون من قبورهم عقيب النفخة الثانية لإسرافيل فى الصور ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (الزمر: ٦٨).

د ـ تقريب لمعنى الضعف والحيرة يوم البعث:

يضرب الله المثل بالحشرات فى كتابه العزيز لبيان ضعف الناس وحيرتهم يوم القيامة، وأنهم أحوج ما يكونون إلى لطف الله ورحمته، فقد تقطعت بهم الأسباب، وتفرقت عنهم الأحباب والأصحاب ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝١١ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝١٢ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝١٣ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ (المعارج: ١١ - ١٤).

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: ٣٧).

وقد تكفلت سورة القارعة ببيان هذا الموقف فى قوله تعالى:

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ (القارعة: ٤).

فيكون الناس يوم القيامة فى غاية الضعف والحيرة كالفراش المبثوث، ونحن نعرف أن الفراش أنواع كثيرة، وهى حشرات رهيفة تخرج بأعداد وفيرة، وتنتشر عقب خروجها فى حالة من الضعف والحيرة، لا تدرى أين تتجه؟ ولا إلى أين تنطلق، وقد يغريها ضوء المصباح فتتهافت عليه فيحرقها.

فاللهم سلمنا فى ذلك اليوم من الذل والضعف والحيرة...

وأعطنا كتابنا بأيماننا... وهب لنا نورا... واجعلنا لك من الشاكرين.

هـ ـ فى ضرب المثل بهذه الحشرات الدقيقة إشارة إلى حال الإنسان وكمال استعداده:

كما قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله خلق آدم على صورته" (أخرجه مسلم فى صحيحه، كتاب الجنة، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل

أفئدة الطير) أى على صفته، فعلى قدر ضعف الإنسان أعطاه الله من كل صفة من صفات جماله وجلاله أنموذجًا ليشاهد فى مرآة صفات نفسه كمال صفات ربه، وإليه الإشارة بقول النبى ﷺ: **"من عرف نفسه فقد عرف ربه"**.

و ـ توضيح شفقة النبى ﷺ بالأمة ومبالغته فى تحذيرهم مما يضرهم: فعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **"مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الجنادِبُ والفراش يقعن فيها وهو يَذُبُّهن عنها وأنا آخذ بحُجزكم عن النار وأنتم تَفَلَّتُون من يدى"** (مسلم ١٤٧/٥ ط: الشعب).

الجنادب: هى أنواع من النطاطات التى تشبه الجراد.

وقيل: هى أنواع من الصراصير، وهى التى تحدث أصواتا رتيبة ليلا، وهى المعروفة بصرصور الغيط.

ونرى أن الصواب هو الأول لأن الأخيرة لا تخشى النور كالأولى.

الفراش: هو أنواع الحشرات الرهيفة التى يطلق عليها الفراش والتى تقع على النار، وقيل غير هذا، ولكن الأول هو الأصح.

ز ـ يضرب بها المثل لتوضيح حكمة شمول الهلاك وعمومه:

ويتضح لنا ذلك فى ضوء الحديث التالى:

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال:

"نزل نبى من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة، فأمر بجهازه فأخرج من تحتها، ثم أمر بها فأحرقت، فأوحى الله إليه: فهلا نملة واحدة" (رواه أبو داود فى كتاب الأدب، باب قتل الذر).

وفى رواية البخارى **"ثم أمر ببيتها فأحرق"** وفى رواية أخرى له فى الجهاد **"فأمر بقرية النمل فأحرقت"**.

وسبب هذه القصة كما فى "بذل المجهود فى حل أبى داود":

أن هذا النبى هو موسى ـ عليه السلام ـ على الترجيح، مر على قرية أهلكها الله

بذنوب أهلها فوقف متعجبا، فقال: يارب قد كان فيهم صبيان ودوابٌّ ومن لم يقترف ذنبا، ثم نزل تحت شجرة فجرت له هذه القصة، فعاتبه الله إيضاحًا لحكمة شمول الهلاك لجميع أهل تلك القرية، فضرب له المثل لذلك، أى إذا اختلط من يستحق الإهلاك بغيره وتعين إهلاك الجميع طريقا إلى إهلاك المستحق جاز إهلاك الجميع، ولهذا نظائر كتترس الكفار بالمسلمين، وغير ذلك، قاله الحافظ فى الفتح.

ح - يضرب بها المثل على ضآلة شأن الدنيا:

ففى حديث سهل بن سعد الذى رواه ابن ماجه **"ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها قطرة أبدًا"** (كتاب الزهد، حديث ٤١١٠) وذلك يدل بوضوح على أن الدنيا لا تستحق التكالب عليها بحيث تستولى على مجامع قلوب محبيها، إذ لو كانت تساوى وزن جناح البعوضة لَضَنَّ الله بها على الكافرين، بل لضَنَّ أن يسقى الكافر جرعة ماء، أما وإن الكفار نراهم يتقلبون فى نعيمها فهى إذًا لا تساوى جناح بعوضة عند الله.

ط - يضرب بها المثل لبيان عظم ملك الله وتمامه وكماله:

ففى الحديث القدسى الذى يرويه أبو ذر: **"ولو أن حيكم وميتكم وأولكم وآخركم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فكانوا على أتقى قلب عبد من عبادى لم يزد ذلك فى ملكى جناح بعوضة، ولو اجتمعوا فكانوا على قلب أشقى عبد من عبادى لم ينقص من ملكى جناح بعوضة"** (ابن ماجه – الزهد ٤٢٥٧).

رابعًا: الإشارة إلى ما ركبه الله فى طبائع خلقه من صفات:

من حكم الله فى ذكر الحشرات فى القرآن إشارة إلى طبائعها، فالبعوض والذباب مخلوق على غاية الضعف، والأسد مخلوق بغاية القوة، ومع هذا فإن الله أعطى البعوض والذباب جرأة أظهرها فى طيرانها فى وجوه الناس، وتماديها فى ذلك مع مبالغة الناس فى طردها، ومن رحمته سبحانه بعباده أنه ركب الجبن فى الأسد، وأظهر ذلك بتباعده عن مساكن الناس وطرقهم، فلو تجاسر الأسد تجاسر الذباب والبعوض لهلك الناس، ومن عجب عجز الإنسان عن هذا الضعيف وقدرته على ذلك القوى بصيده وأسره.

ويجب ألا يغيب عن الأذهان ما قاله القشيرى:

إن الخلق فى التحقيق بالإضافة إلى قدرة الله أقل من ذرة من الهباء فى الهواء، ويستوى فى قدرته العرش والبعوض، فلا خلق العرش عليه أعسر، ولا خلق البعوض عليه أيسر، سبحانه وتقدس عن لحوق العسر واليسر.

obeikandl.com